بسم الله الرحمن الرحيم

السودان على طريق التقدم بالإسلام(ورقة عمل)

محمد الحسن بريمة إبراهيم(2014م)

مقدمة

ورقة العمل هذه مجتزأة من بحثي بعنوان: "رؤية القرآن للعالم ودلالتها على أولويات المشروع الإسلامي في السودان"[1]، وهي الجزء الأخير منه، وهو يمثل البحث المرجعي لها. لقد فهمت من التكليف الذي كلفنا به مركز التنوير المعرفي أن المطلوب هو الإجابة المعرفية عن السؤال الآتي:

كيف يمكن أن يتقدم السودان بالإسلام، بشروط الزمان والمكان؟

بمعنى آخر كيف يمكن أن يتنزّل الوحي المطلق ليحكم حركة التغيير في واقع مقيّد بمكان هو السودان، جغرافية ومجتمعا، ومقيد بزمان هو الربع الأول من القرن الحادي والعشرين. والمنهج العلمي المناسب لمقاربة السؤال، فيما أرى، هو أولا، الإجابة عن السؤال المتعلق بماهية رؤية الوحي لعالم الاجتماع الإنساني، ثم توظيف هذه الرؤية الكلية للوصول إلى أهم المتغيرات التي تتفاعل فيما بينها لينتج عن هذا التفاعل الاجتماع الإنساني التاريخي، ثم بعد ذلك توظيف هذه المتغيرات وتفاعلها للنظر إلى الاجتماع السوداني، المتحيز في المكان والزمان، في كلياته للوصول إلى الطبيعة الخاصة بهذا التفاعل وتمظهراته الاجتماعية السودانية. يجب أن تمكننا هذه النظرة الكلية للظاهرة الاجتماعية السودانية من الوصول إلى القضايا الجوهرية التي تحكم الواقع الاجتماعي السوداني الآن، وهي التي سوف تكون محور الدراسة التفصيلية المتعمقة،

[1]- البحث المرجعي والموردي لورقة العمل هذه هو: "رؤية القرآن للعالم ودلالتها على أولويات المشروع الإسلامي في السودان"، محمد الحسن بريمة إبراهيم(2011م)، ط1، مجمع الفقه الإسلامي السوداني، الخرطوم.

على المستوى النظري والتطبيقي لينتهي بنا الأمر إلى وضع استراتيجيات وخطط وسياسات تمكّن السودان من التقدم بالإسلام، إن شاء الله تعالى.

مساهمتي المتواضعة التي أقدمها بين يدي اللجنة الموقرة تتسق والجزء الأول من المنهجية البحثية المقترحة، حيث قمت بجهد علمي لاستخلاص رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، ثم وظفت هذه الرؤية النظرية في استخلاص القضايا الجوهرية التي تحكم تمظهرات الاجتماع السوداني. هذه القضايا الجوهرية هي التي أرى أنها أولى بالبحث الذي سوف تقوم به اللجنة الموقرة، وقد قسمتها إلى قسمين، أولويات معرفية، وأولويات عملية.

هذه المساهمة العلمية لا تغني عن مساهمات مماثلة من أعضاء اللجنة ومن غيرهم حتى تتكامل الجهود للخروج بعمل علمي رصين ناضج يسهم في خروج السودان من هذا المأزق التاريخي الذي هو فيه.

1- الأولويات المعرفية

1.1- حقيقة الدين الإسلامي

رغم ما يتبادر إلى ذهن المسلم من بداهة المقصود إلا أن **رؤية القرآن للعالم** والمنهج الذي اتبع في تحليلها وتوليد مضامينها تبين رؤية ومعاني وأبعاد للدين ربما يترتب عليها إعادة النظر في المقصود بالدين مما يطرحه العلماء والدعاة إلى الإسلام في هذا الزمان(القرن21)، وهذا المكان(السودان). إن الله تعالى يخبرنا أنه أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقيم الناس الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان، وهذا هو – الكتاب والميزان– الدين في معياريته المعرفية حيث هو شرعة(مقاصد) ومنهاج(وسائل). وأما الدين من حيث هو حكم الناس حياتهم العملية بما أنزل الله من كتاب وميزان، وبما جعل من شرعة ومنهاج، فجوهره ابتلاء الناس في أعمالهم الإرادية، ومجاله زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، حيث الاستخلاف والعمران، وحقيقته الشكر لله تعالى على نعمه. ويقتضي ذلك علم وإيمان وعمل صالح تتزكى

بها النفس وتصلح بها الأرض، وقد كانت السنة النبوية وما زالت هي البيان والمنهج العملي لكيف يمكن حكم واقع اجتماعي متغير، ومتحيز في الزمان والمكان، بتلك الشرعة بوساطة ذلك المنهاج. والدين العملي هذا هو مجتمع التوحيد بكل تجلياته في فضاء زينة الحياة الدنيا؛ بعلومه ونظمه وأعرافه وعاداته ومؤسساته وأعمال وتدافع أفراده، بشروط الزمان والمكان. هذا هو الدين المطلوب الحفظ على المستوى الكلي في مقاصد الشريعة الإسلامية، فما معنى الحفظ؟ وكيف يكون؟ ومن يقوم به؟

إن رؤية القرآن للعالم التي تم بسطها في متن البحث المرجعي لورقة العمل هذه تبين لنا أن أصول شريعتنا لا تتبدل، فهي دائما وأبدا: الإيمان؛ النفس؛ العلم التوحيدي؛ المال؛ البنون؛ ومجتمع التوحيد(الدين) الذي يتولد من تفاعلها في الزمان والمكان. ولكن لأنها متغيرات في الزمان والمكان فإن تجلياتها، ومن ثم تجليات مجتمع التوحيد الذي ينشأ عنها، لابد أن تختلف بحسب اختلاف الزمان والمكان، وكذلك سوف تختلف التحديات التي تواجهها، والفرص المتاحة لها، الداخلية منها والخارجية. ولما كانت الوسائل تحددها المقاصد فإن الاختلاف في تجليات تلك المقاصد والتحديات التي تواجهها بسبب اختلاف الزمان والمكان يتبعه اختلاف الوسائل المطلوبة لتحقيق تلك المقاصد. فكيف إذن يتجلى الدين بمقاصده ووسائله وتحدياته وفرصه في هذا الزمان(القرن21)، وهذا المكان(السودان)، على المستوى المعرفي؟

2.1- الشرعة قبل المنهاج

إذا كان الدين شرعة(مقاصد) ومنهاج(وسائل) فليس هناك من عاقل، دعك من راشد، يقدّم الوسائل على المقاصد، لا من حيث المباحث العلمية ولا من حيث التطبيقات العملية، لأن ذلك من ضرب وضع العربة أمام الحصان. فالميزان، ونقصد به هنا الأحكام التكليفية العملية للشريعة، ما تعلق منه بظاهر الأعمال وما تعلق منه بباطنها، والموزون، ونقصد به هنا أعمال المكلفين، إن هي إلا وسائل(منهاج) لتحقيق مقاصد الدين(الشرعة)، بشروط الزمان والمكان، فإن لم تُعلم المقاصد بدقة فلا فائدة من الوسائل. لذلك ينبغي أن تأخذ مباحث المقاصد الأولوية

القصوى في جميع مجالات العلم، في إطار المشروع الإسلامي السوداني، ثم تأتي من بعد ذلك مباحث الوسائل المشروعة والمناسبة لتحقيق تلك المقاصد، بما في ذلك المباحث الفقهية، أما أن تصبح مباحث المقاصد هي مجرد وسيلة أصولية لاستنباط الأحكام الفقهية فتلك إذن قسمة ضيزى، لأنه يؤدي إلى قلب منطق الأشياء رأسا على عقب، فتصبح المقاصد وسائل والوسائل مقاصد.

3.1- علوم الدين[2]

علوم الدين، كما يتضح من **رؤية القرآن للعالم**، هي تلك العلوم التي لابد منها لإقامة واستدامة مجتمع التوحيد(الدين). وقد تبين أنها علوم تبدأ بفلسفة العلم مرورا بالعلوم الصورية، ثم المعيارية من توحيد ومقاصد وفقه وتزكية وتنتهي بعلوم الطبيعة والمجتمع، في كل مترابط تربط بينها رؤية القرآن للعالم ونظامها المعرفي، ويميز بينها زاوية النظر العلمي إلى موضوع الدراسة. هذا يقتضي بالضرورة إعادة النظر في تصنيفنا للعلوم وأهميتها لمشروعنا الإسلامي الذي شعاره الرباني: "ولا تقف ما ليس لك به علم"؛ واستحضار الوعي بسوء الحال الذي يحيط بالوضع القائم في جامعاتنا ومراكز بحثنا العلمي، من حيث نوع ومضامين المناهج الدراسية، وأولويات ومخرجات البحث العلمي. والنتيجة التي توصلنا إليها في متن البحث المرجعي في أن حفظ أصول المقاصد الكلية للدين على الدوام يحتاج إلى تنمية مستدامة، لأن هذا مقتضى كونها متغيرات في الزمان، يدل على الحاجة الملحّة لتثوير فهمنا لديننا وأولوياته المعرفية والمنهجية، مستفيدين في ذلك من السقف المعرفي الذي يتيحه لنا التقدم الذي أحرزته البشرية في مجالات العلم المختلفة. كذلك لابد من اعطاء أولوية مطلقة لقضية "إسلام المعرفة" وعدم تركها لمبادرات الأفراد، وحشد الطاقات العقلية والموارد المالية لها، لأنه لا سبيل إلى إحراز تقدم عملي في المشروع الإسلامي إلا بمقدار ما نحرزه من كسب في مجال العلم التوحيدي. نحن بكل الصدق في حاجة إلى ثورة معرفية توحيدية عارمة شعارها: "إن الظن لا يغني من الحق

[2] - يصلح بحثي بعنوان: "نحو ثورات ثلاث" كبحث مرجعي إضافي لهذا الجزء من ورقة العمل هذه.

شيئا"، ودليلها: "ولا تقف ما ليس لك به علم"، وحجتها: "هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". ثورة تثوّر القرآن على بصيرة، وتحرر خصائصه المعرفية(إطلاق؛ عالمية؛ شمول؛ هيمنة؛ تصديق؛ وحدة بنائية..إلخ) من هيمنة الفهم النسبي التاريخي للبشر، وتفجّر طاقاته العلمية وتعود به إلى المركزية في إنتاج العلم على مستوى السقف المعرفي للبشرية اليوم. إن العقل الملتزم بالإسلام لا يمكنه أن يبدع خارج دائرة الوحي، ولكن إذا كان الوحي نفسه قد تمت الهيمنة عليه لصالح فهوم بشرية نسبية، بأي صورة من الصور، وبأي درجة من الدرجات، فإن ذلك يعني بالضرورة توقف العقل المسلم عن الاجتهاد والإبداع المعرفي.

4.1- الجامعة الحاضنة

إذا سلمنا بما سبق من أولويات معرفية فإن الحاجة تمس إلى جامعة نموذجية تكون حاضنة لهذه الثورة المعرفية التوحيدية، بمراكزها البحثية وقاعاتها الدراسية؛ بحيث لا ينتمي إلى هيئة تدريسها وباحثيها إلا ثائر معرفي توحيدي له عطاء ثوري مشهود، ولا يلتحق بها طالبا إلا نجيب تُرجى ثمرته المعرفية من قريب. جامعة لا تقعد بها القيود والمحددات التي قعدت بغيرها من الجامعات السودانية.

5.1- التواصل المعرفي مع الغرب

النموذج الدنيوي، بحقيقته التي بينها القرآن، يشكل حضورا دائما، ويحدث تأثيرا، قد يكون قويا أو ضعيفا بحسب استجابة النفس لدواعيه بمقدار تمكّن أو ضعف الهوى فيها، في حياة الفرد والمجتمع المسلم. ولما كانت الحضارة الغربية، المؤسسة على النموذج الدنيوي هذا، قد أنتجت علوما كثيفة، بعضها متقدم كما في الطبيعيات، وبعضها متعثر كما في الاجتماعيات، على المستوى النظري والتطبيقي، فإنّ من الحكمة الاستيعاب التام لهذه العلوم لأن ذلك، أولا؛ شرط من شروط إمكان إسلامها، وثانيا؛ لأنها، إلى حين، تمثل اليوم السقف المعرفي في العلوم الكونية الذي يمكننا توظيفه في مجالها من أجل تقدمنا. كذلك فإن تراث التقاليد العلمية، والبيئة

العلمية الحقّة التي لابد منها لإنتاج العلم والعلماء واستدامته، لا توجد حقيقة إلا في جامعات الغرب العريقة والمرموقة. لذلك يجب ابتعاث أبنائنا النابغين المتفوقين أكاديميا من خريجي جامعاتنا، في المجالين الطبيعي والاجتماعي، المستعصمين بتوحيدهم، الثائرين على التخلف المعرفي لأمتهم، إلى أرقى جامعات الغرب، ليس فقط للحصول على الشهادات العلمية العليا، ولكن أيضا لاكتساب الروح العلمية، على أن يكونوا مدركين للمهمة التأصيلية التي لها انتدبوا. هؤلاء هم الذين يرجى أن يقودوا الثورة المعرفية التوحيدية في جامعاتنا ومراكزنا البحثية، بعد تأهيلهم وعودتهم إلى بلادهم، وبعد تهيئة الظروف المناسبة لهم. ولكن إلى أن تنشأ جامعتنا النموذجية وتقوم بدورها يجب أن تجد قضية إسلام المعرفة طريقها إلى جامعاتنا القائمة، وأن يجد ما أنتج من علم متخصص في إطار القضية حظه في قاعات الدرس على مستوى البكلاريوس والدراسات العليا.

2- الأولويات العملية

1.2- الدين والواقع الاجتماعي

حقيقة الدين في الواقع، من حيث الزمان والمكان، إن هي إلا هذا التفاعل بين المتغيرات السبعة(الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون) المنتجة للظاهرة الاجتماعية، ومآلاته من حيث حفظ ميزان التفاعل على صراط الله المستقيم، أو الإلحاد فيه بما يؤدي إلى اتباع سبل أخرى تفرّق الدين. لذلك فإن حفظ الدين على الدوام كأولوية في مقاصد الشريعة إن هو إلا حفظ هذا التفاعل، على مستوى الفرد والمجتمع، ليكون على صراط الله المستقيم على الدوام. وأما الميزان الذي أنزله الله تعالى ليحفظ به الناس هذا التفاعل على صراط الله المستقيم، على الدوام، فيتلخص في قوله تعالى: (

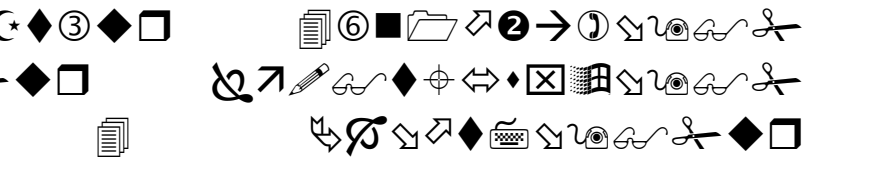

[illegible])(النحل).

إن من المهم أن نعلم أن هذا التفاعل الاجتماعي هو التفاعل الأعظم خطرا والأجل أثرا على الأرض، لا يدانيه في ذلك أي تفاعل فيزيائي أو كيميائي أو حيوي، لأنه يمكن أن ينتج هو جميع هذه التفاعلات ولا ينتجه أي منها، ويمكنه أن يعمر الأرض بالصلاح، كما يمكنه أن يهلك الحرث والنسل. وقد أشار القرآن إلى عظيم خطره في عدد من الآيات منها: "([illegible])(فاطر)؛

([illegible])(المؤمنون)؛ ([illegible])(الأعراف).

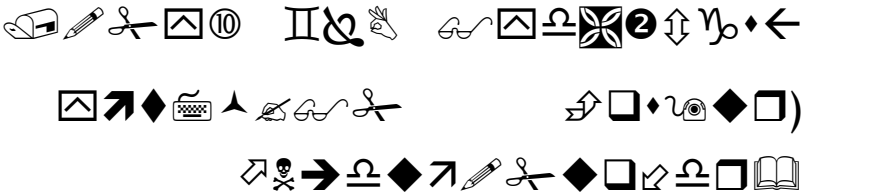

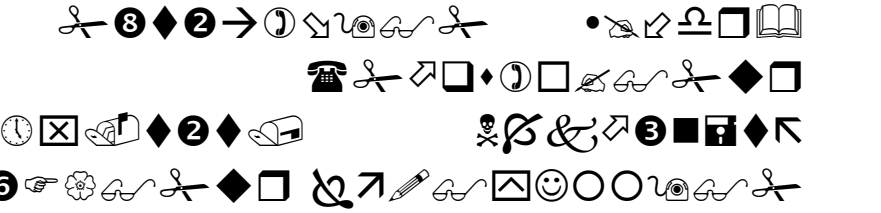

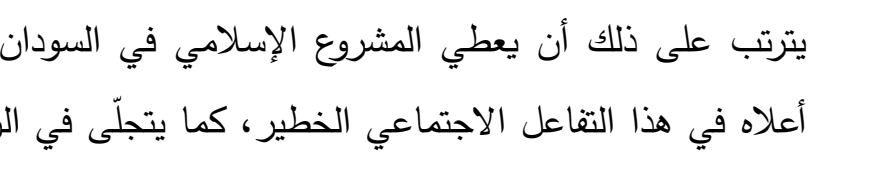

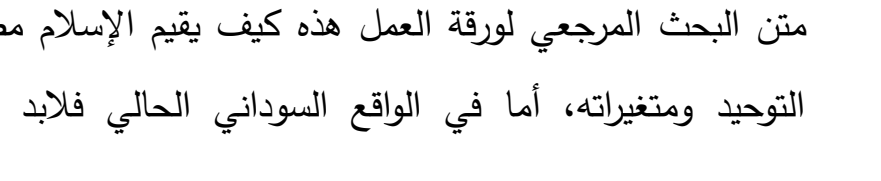

يترتب على ذلك أن يعطي المشروع الإسلامي في السودان أولوية قصوى لتحكيم ميزان الله أعلاه في هذا التفاعل الاجتماعي الخطير، كما يتجلّى في الزمان والمكان. لقد بينا إجمالا في متن البحث المرجعي لورقة العمل هذه كيف يقيم الإسلام مطلقا هذا الميزان في حفظ مجتمع التوحيد ومتغيراته، أما في الواقع السوداني الحالي فلابد من دراسة علمية تطبيقية دقيقة

ومستفيضة لتمظهرات هذا التفاعل ولمتغيراته، ومدى قربه أو بعده عن صراط الله المستقيم، تتكامل فيها جميع التخصصات العلمية المتاحة في إطار موجهات منهجية توحيدية للبحث تستلهم فقه الأولويات المقاصدي، ثم وضع الاستراتيجيات والخطط والسياسات المناسبة التي تنتقل بهذا التفاعل، تدرجا في الزمان والمكان، نحو توازنه الرشيد المستقر المستدام.

إن الواقع الاجتماعي السوداني الذي يمور بالصراعات من كل نوع لأكثر من نصف قرن يدل على أن هناك اختلالا خطيرا ومزمنا في الميزان الاجتماعي الذي أمرنا الله تعالى أن نقيمه بالقسط ولا نخسره. لابد من طرح أسئلة ثلاثة وإجابات عنها تنبني عليها الخطة التي ينبغي اتباعها ليتقدم السودان بالإسلام، بشروط الزمان والمكان، وهي: كيف؟ هل؟ ما هي؟.

الأسئلة المتعلقة ب"كيف" معنية بالشق المعياري من البحث يُستقصى فيها رؤية الإسلام المعيارية للقضية المطروحة، بشروط الزمان والمكان؛ أسئلة من قبيل: كيف تقيم الدولة والمجتمع السوداني الوزن بالقسط في المجال المالي بحيث يتحقق ميزان الله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...). وتشمل الإجابة هنا، تأسيسا على المنهجية والمنهاج المقاصدي، جميع القضايا المتعلقة بالموارد الطبيعية والبيئة الداعمة لها، من حيث الصلاح والفساد في الاستخدام؛ وتشمل الإجابة أيضا جميع القضايا التي يثيرها علم الاقتصاد فيما يتعلق بالإنتاج وتخصيص الموارد، وقضايا توزيع الدخل والثروة بين أفراد المجتمع والعدل والإحسان في ذلك، وقضايا الانفاق الاستهلاكي والاستثماري، العام والخاص والخيري، وإقامة الوزن بالقسط فيها، وقضايا ميزان المدفوعات والميزان التجاري وما يرتبط بذلك من علاقات السودان الخارجية، وقضايا النظم المالية والنقدية، وقضايا الغِنى والفقر، وعلاقة المال بالمتغيرات المعرفية والتربوية والاجتماعية والسياسية، ليتحقق من جميع تلك الاجابات معنى الإنفاق في سبيل الله باعتباره حقيقة الشكر لله في مجال المال، والحافظ لمقاصد الشريعة فيما يلي المال.

الأسئلة المتعلقة ب"هل" والإجابة عنها تقابل تلك المتعلقة ب"كيف" ويُستقصى فيها حقيقة الواقع السوداني المقابل للحق الذي توصل إليه البحث المعياري، في المجال المالي مثلا، كما سبق أعلاه. الإجابة المتحصلة هنا ينبغي، عند مقارنتها بما يقابلها من إجابات معيارية، أن تمكننا من الوقوف على الفجوة بين ما ينبغي أن تكون عليه الأمور وبين حقيقتها في الواقع السوداني.

المقارنة بين الحق المعياري وحقائق الواقع السوداني المقابلة له ينبغي أن تمكننا من طرح والإجابة عن الأسئلة المتعلقة بما هي الاستراتيجيات والخطط والسياسات المطلوبة لكي يتمكن السودان من التقدم نحو تحقيق مقاصده المعيارية في جميع المجالات.

ويتبع نفس المنهج للوصول إلى إجابات شبيهة للأسئلة المتعلقة بالقضايا الحيوية في باقي المجالات الاستراتيجية: التربوي، المعرفي، الاجتماعي، السياسي...إلخ، مستخدمين نفس الميزان الإلهي: 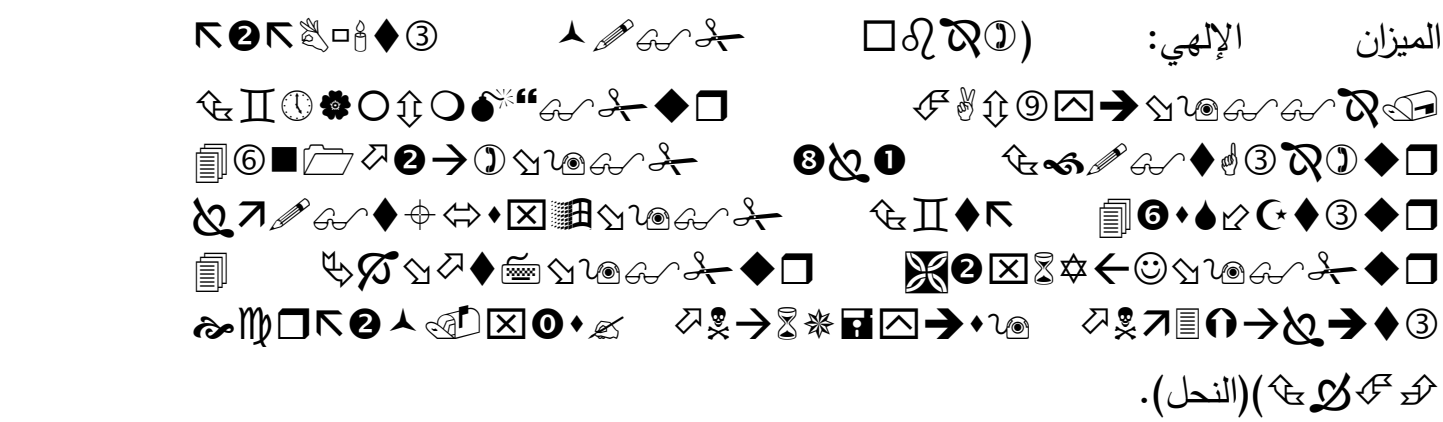(النحل).

لا شك أن هناك حاجة إلى متخصصين في كافة المجالات التي تستهدفها الدراسة، ولابد من توفير موارد كبيرة تيسّر القيام بهذه الجهود الضخمة، ولابد من الوعي التام بأن هذا العمل يحتاج إلى وقت طويل وصبر، والله تعالى المستعان على تذليل عقبات الواقع السوداني حتى تثمر الجهود ثمرة تنفع الناس.

2.2- تطبيق الشريعة أم إقامة الدين؟

أرى أن هناك ضرورة لمراجعة الخطاب بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، لأن أصحاب هذا الخطاب لا يقصدون، فيما يبدو من ظاهر أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم، من الشريعة

إلا معناها الاصطلاحي، وهو تطبيق الأحكام التكليفية العملية. والشريعة بهذا المعنى هي مجرد منهاج(وسيلة) لابد لها من هدف أو مقصد(شرعة)، وقد سبق أن قلنا إن المقاصد لابد أن تتقدم الوسائل، لا من حيث الترتيب فحسب بل من حيث الأهمية، فهي التي تحدد ما يناسبها من وسائل، بشروط الزمان والمكان. وإذا كان الأمر كذلك فما معني التركيز على تطبيق الوسيلة مع إهمال تام لمقاصدها؟ ثم إن الأحكام التكليفية العملية هي زاوية واحدة من زوايا النظر إلى ذات الفعل أو العمل الذي هو الوسيلة الحقيقية لتحقيق مقاصد الدين في الواقع. ولكن ماذا عن زوايا النظر العلمية الأخرى لذات الفعل، والتي لا تقل أهمية عن النظرة الفقهية، حتى يأتي المكلف بالفعل الأرشد وبالطريقة الأفعل ذات الأثر الأكبر، لتتحقق مقاصد الدين في الواقع بطريقة مثلى؟ آن الأوان لرد الاعتبار لعلوم الدين الطبيعية والاجتماعية التي بدونها لا سبيل إلى الوصول إلى أدلة الإيمان الكونية، ممثلة في آيات الله في الأنفس والآفاق، ولا إلى تحويل الفعل الاجتماعي إلى عمران للأرض، وتحقيق الشكر لله تعالى في زينة الحياة الدنيا، وهو جوهر الدين.

هناك أيضا إشكال أن الشريعة بالمعنى الاصطلاحي هي نصوص مقدسة مطلقة يحتاج حكمها للواقع الاجتماعي، المتحيز في الزمان والمكان، إلى اجتهاد بشري نسبي، بشروط الزمان والمكان وفقه الأولويات المقاصدي، فمن يا ترى من الجماعات الإسلامية، التي تمايزت عن بعضها في نفس الأمر، يكون لفهمها الكلمة العليا؟

لكل ما سبق أرى أن الخطاب الأوْلى بنا هو الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله، وقد أنزل الله الكتاب والميزان، وجعل الشرعة والمنهاج، أو أن يكون الخطاب الدعوة إلى إقامة الدين في الحياة، وهذا هو معنى الشريعة حقيقة كما وردت في القرآن: (

(الشورى)؛ ... (الجاثية).

وقد تبين لنا مما سبق أن الدين في الرؤية القرآنية للعالم، من حيث هو واقع عملي، مساوٍ لمجتمع التوحيد بكل ما يحتاجه من علوم ونظم اجتماعية ومؤسسات وأعراف وعلاقات دولية...إلخ. ولا شك أن إقامة الدين بهذا المعنى أوسع مدى من مجرد الدعوة إلى تطبيق الشريعة بمعناها الاصطلاحي، ويصبح تطبيق الشريعة بهذا المعنى كوسيلة شرط ضروري ولكنه ليس بكافٍ لإقامة الدين.

لابد من إعطاء الأولوية القصوى لمقاصد الدين الكلية كمقاصد للدولة وللمجتمع، وأن يتم تقييم أداء التجربة الإسلامية في السودان على أساس ما حققت من مقاصد الدين العليا في حياة الناس، لا على أساس ما تم تطبيقه من أحكام شرعية، فليس هناك من عاقل يقيّم أداءه في الحياة بمقدار ما وظّف من وسائل، ولكن بمقدار ما حقق من أهدافه بتوظيفه تلك الوسائل. إن التميّز في تحقيق الأهداف دليل على كفاءة الوسائل المستخدمة، ولكن العكس ليس بصحيح. ولكن إذا فشلنا في تحقيق أهدافنا فعندها سوف تكون مراجعة الوسائل المستخدمة واحدة من أهم الإجراءات التي يجب اتخاذها للوقوف على أسباب هذا الفشل. إن القانون(الشريعة اصطلاحا) بطبيعته تضييق وضبط وتقييد بينما المقاصد إطلاق وتحفيز، فإذا وُجد الضبط والتضييق والتقييد في غياب المقاصد الحافزة للعمل، والمبررة للضبط والتضييق والتقييد، سرعان ما يملّ ويتبرّم الإنسان ويبدأ في التفلّت والتجاوز بحثا عن مقاصده الخاصة، التي غالبا ما تكون تعظيم متاع الحياة الدنيا، وهي مطية الهوى والشيطان.

لابد من الانتباه إلى قضية منطقية من حيث الشكل ولكنها من حيث الجوهر بالغة الخطورة في تطور المجتمع أو تخلفه، وكذلك في نجاح أو فشل تطبيق المشروع الإسلامي، وهي قضية الاتساق أو عدمه بين المقاصد الجوهرية وبين وسائل تحقيقها. الشريعة الإسلامية، بمعناها الاصطلاحي، وضعها الشارع وسيلة لتحقيق مقاصد الدين في حياة المسلمين، ولكن ذلك يقتضي أن تكون مقاصد المسلمين الجوهرية في حياتهم مطابقة لمقاصد الشارع، وعندها تكون الوسائل الضرورية التي يتوخاها الناس لتحقيق مقاصدهم الحياتية هي الشريعة الإسلامية. وهذا هو الوضع المثالي ليعطي الإسلام أفضل عائد من إقامة الحياة به، للأفراد والجماعة، وذلك لاتساق المقاصد ووسائل تطبيقها. ولكن عندما يختار الناس مقاصدهم الحياتية الجوهرية بعيدا عن مقاصد الدين فمن المنطقي أن يبحثوا عن وسائل تحقيقها بعيدا عن الشريعة، لأنها ليست الوسيلة المتسقة مع مقاصدهم، ومن هنا ينشأ الإشكال الحقيقي حيث إن إلزام الناس بتطبيق الشريعة، بمعناها الاصطلاحي، في حياتهم الفردية والجمعية، يكون غير ذي جدوى. وقد يلتزم الناس شكلا بالشريعة، ولكنه يكون التزام نفاق، وتكون الشريعة عبئا ثقيلا على الناس، وعائقا لهم عن تحقيق مقاصدهم الدنيوية، التي لابد لهم من تحقيقها لأنها مقاصد حياتهم الجوهرية. ويترتب على هذا الوضع الناجم عن عدم الاتساق بين مقاصد الناس الحياتية والوسيلة المتاحة لهم لتحقيقها، وهي الشريعة، عدة نتائج سالبة، منها فشل المجتمع في تحقيق أهدافه الدنيوية؛ ومنها فشل تطبيق أحكام الشريعة لتفلّت الناس منها؛ ومنها خلق حالة من النفاق الاجتماعي؛ ومنها خلق أجواء من التوتر الاجتماعي، ومنها خلق موقف نفسي سالب من تجارب تطبيق الدين في الحياة جملة. والحل يكمن في أن يرتب المجتمع شأنه كله على أساس مقاصد الدين الجوهرية، بشروط الزمان والمكان، لا سيما في المجال المعرفي والمجال التربوي، فتتأسس بذلك القاعدة الفكرية التي تربط بين عالم الناس وعالم الأشياء على أساس متين من مقاصد الدين. ولابد من تربية الناس، منذ طفولتهم الباكرة، على أساس مقاصد الدين الجوهرية حتى يشبوا عليها، فيحددون مقاصدهم الحياتية طوعا وتلقائيا من خلال المقاصد التي يريدها لهم الشارع. أما أن يترك الناس على هواهم حتى يكبروا، وحتى تصبح الدنيا هي مقصدهم وهمهم، ثم تلزمهم

جهة ما بأحكام الشريعة الإسلامية، التي هي مجرد وسائل دون مقاصد، فإن ذلك يندرج تحت إتيان البيوت من غير أبوابها.

3.2- الجماعات والأحزاب الإسلامية: تعالوا إلى كلمة سواء

إقامة الدين في الواقع تحتاج إلى علم(اجتهاد) وإيمان بالله تعالى وعمل صالح في زينة الحياة الدنيا؛ فعلى أي أساس من هذه الأركان الثلاثة تمايزت الجماعات والأحزاب الإسلامية في السودان عن بعضها البعض، بما أدى إلى إضعاف صف المسلمين، وتعريض المشروع الإسلامي السوداني للفشل؟ وهل تم تحرير الخلاف بينها على أساس جدل علمي متجرد، وُظّف فيه المنهج العلمي في حسم القضايا المثارة، بحيث يُردّ الناس إلى الحق ردا جميلا؟

هناك حاجة ملحة إلى فرز الحق من الباطل فيما يدعو إلى التمايز بين الجماعات والأحزاب السودانية التي تستمد مشروعيتها من الالتزام بالإسلام، لأن الله تعالى أمرنا أن نقيم الدين ولا نتفرق فيه، لأن التفرق يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح، وأن نقيم الوزن بالقسط ولا نخسر الميزان. إذن لابد لهذه الجماعات والأحزاب المتباينة من أن تأتي إلى كلمة سواء يكون أساسها: إن الظن لا يغني من الحق شيئا.

4.2- التنمية المستدامة شرط لحفظ مقاصد الدين في الحياة على الدوام

لعل أهم النتائج التي كشف عنها البحث المنهجي في رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني هو أن أصول الاجتماع التوحيدي هي نفسها أصول مقاصد الشريعة الإسلامية، وأنها متغيرات متفاعلة في الزمان والمكان، فالإيمان يزيد وينقص، وكذلك النفس والعلم والمال والبنون، وكذلك نظام المجتمع ككل. نتيجة أخرى للبحث لا تقل أهمية عن سابقتها هي أن العلاقة التي تربط بين الإيمان من جهة وبين النفس والعلم والمال والبنون من جهة أخرى هي علاقة دال ومدلول، أو ناتج ومدخلاته؛ أي أن الإيمان ثاوٍ في حياة الناس العادية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب وتربية وتعليم. وهذا معنى الأحاديث الشريفة التي تقول إن الدنيا مزرعة الآخرة،

وأن اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ولآخرتك كأنك تموت غدا. وهاتان النتيجتان تكيّفان تماما فهمنا للارتباط الوثيق بين الدين والتنمية من جهة، ولمفهوم التنمية وأولوياتها من جهة أخرى، كما بينا ذلك باستفاضة في بحثنا عن التنمية المستدامة[3]. فقد تبين لنا أن إقامة الدين وحفظ مقاصده في الواقع الاجتماعي، على الدوام، يقتضي تنمية مستدامة تؤدي إلى **زيادة** في الأصول المقاصدية للدين(الإيمان؛ النفس؛ العلم؛ المال؛ البنون)، أو تحول بينها وبين **النقصان.**

إن من أولويات المشروع الإسلامي في السودان إعادة النظر في مفهوم التنمية في ضوء رؤية القرآن للعالم الاجتماعي ومقاصد هذه الرؤية؛ فهي تجعل الإنسان محور التنمية وتجعل جوهر هذه التنمية هو تنمية إيمان من آمن ودعوة من لم يؤمن إلى الإيمان. ولكن إيمان المؤمن لن يزيد إلا بزيادة العمل الصالح في مدخلاته المتمثلة في زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، بالمعنى الذي فصلناه لهذا المفهوم في متن البحث المرجعي، لأن هذا هو مجال الابتلاء الذي جعله الله تعالى قدر الإنسان في هذه الدنيا. ولكن زيادة العمل الصالح، كمّا ونوعا، في زينة الحياة الدنيا لن يأتي بها المؤمن على وجهها إلا إذا ازداد وسعه التكليفي، كما بينا ذلك باستفاضة في بحثنا عن التنمية المستدامة. ولكن الوسع التكليفي للمؤمن يزداد، كمّا ونوعا، بزيادة حظه من العلم التوحيدي والتدريب المهاري وبزيادة حظه أيضا من التربية على أخلاق التقوى. هكذا تصبح العملية التنموية حلقات متصلة من التزكية والتزكي في العمل تثمر شكرا يديم النعمة ويزيدها. هذا يقتضي أن تتمحور استراتيجيات وسياسات الدولة التنموية حول زيادة الوسع التكليفي للإنسان السوداني بما يمكّن من خلق شخصية المسلم الراشد الذي يصدق فيه قول الله تعالى: (❒◆⓪♦⓪▤⬀♊❍🡐 ☑✃☎ ✃✍✎⅄ ❍⍓⌨★◘✾ ⍓➐ ✃✍“☼❸☺⍓⓪♊⌘ ❒◆♾⍓❸✸☪◆❍🡐⓪ ⓪⍓⓪♦⓪▤⬀☠⇖ ❒◆✍⍓☒❷▪■❑ ⍓⓪♦⓪▤⬀☠⇖ ⍓➔◘➔❑✍⍓▤⬀✍⬀ ✃✍⓪⍓▤⬀⊞▦❷◆ ❒◆✃✍⓪⍓⊞▦➔○⓫❑⍓♦ ❒◆✃✍⓪⍓➔♋⓪◆⓾◆✍♌◆ 🗐 🕮⬆❒⓪♦⓪✵✧✎⌨⍓ ⚖➔☠⇖

[3] - أنظر كتاب: "التنمية المستدامة: تأسيس مقاصدي"، محمد الحسن بريمة إبراهيم(2013)؛ ط2؛ مركز التنوير المعرفي والمركز الإسلامي لبحوث ودراسات التنمية المستدامة.

(الحجرات)؛ (النحل)؛ (الزمر).

لقد أثبتت البحوث العلمية في مجال التنمية في الغرب أن الناس يصيرون أكثر قدرة لأسباب تتعلق بالنمو الروحي، والنفسي، والبدني. إنّ الناس الذين يحققون تنمية من هذا النوع تتسع قدراتهم، وتنمو في كافة مجالات الحياة، وليس فقط في مجال العمل، أو المجال الشخصي، وقد أطلقوا على هذا النوع من القدرات الشخصية (رأس المال الذاتي). إذن يمكن تشبيه دور رأس المال الذاتي، في رفع الكفاءة الشاملة للإنسان، بدور التقدم التقني(Technological Progress)، الذي ينقل الدالة الإنتاجية إلى موقع أعلى، مع ثبات عوامل الإنتاج، مما يعني الرفع الشامل لإنتاجية عوامل الإنتاج الموظفة.

إن الاستثمار في رأس المال الذاتي ينتج أناساً يتمتعون بمهارات اجتماعية أكبر، ودافعية أكثر، وشخصية متزنة، ومن ثم يصبحون أشخاصاً أفضل، في ذاتهم، وأفعالهم.

5.2- بث ثقافة رؤية القرآن للعالم في المجتمع

لابد من إعطاء أولوية قصوى لبث ثقافة رؤية العالم القرآنية في المجتمع السوداني بكل أبعادها العلمية والتربوية والحضارية والعمرانية، موظفين في ذلك كل وسائل التربية والاتصال والانتقال. تُرى لو أن علماء الدين عندنا بثوا في وعي الناس أن إقامة الحدائق ذات البهجة يمكن أن يكون بالنيّة عبادة لله الواحد، لأنها من أدلة التوحيد كما قال تعالى: (

)(النمل)، هل كان حال وجداننا وبيوتنا وبيئتنا الحضرية على هذا النحو البائس النافر من الجمال، المفتقر إلى أدنى مقوماته؟

من الطرائف عميقة المغزى والدلالة على فجيعتنا في فهم ديننا أن أحد زملائي من الأساتذة، وهو يحمل درجة الأستاذية في علوم الزراعة، وينتمي إلى إحدى الجماعات الإسلامية المعروفة، وفوق ذلك هو إمام يصلي بالناس الجماعة والجمعة أحيانا، زارني ونفر كريم من الزملاء في منزلي الحكومي، وكانت وما زالت به حدائق ذات بهجة. وما أن رأى الحديقة حتى بادرني معلقا: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)؛ إشارة إلى الآية الكريمة: (

)(الأحقاف).

6.2- إعداد القوة المستطاعة ورباط الخيل

لقد تبين لنا في متن البحث المرجعي أن نموذج الاجتماع الدنيوي يتأسس على فجور النفس وحب الدنيا، وأن نموذج الاجتماع التوحيدي يتأسس على تقوى النفس وحب الآخرة، فهما نقيضان إذن. لذلك كانت العلاقة بين المجتمعات التي يتمظهر فيها هذان النموذجان في التاريخ، عند االتزاحم في الزمان والمكان، هي علاقات عدائية يبادر فيها المجتمع الدنيوي بالعدوان على أهل التوحيد ومجتمعهم بكل سبل القوة التي يملكها، لا يألو جهدا في ذلك، وقد أكد القرآن ذلك فقال: (❐◆•• ③◆❽◆✁◉♑❏♌◆ ③↖◑•◷☝♒◘➔❏☼◆▤↗☠⬀ ❍⍓☹✸✎▤ ③◆❷↖⑩♋❐✍↗☠⬀ ↖◆♊ ⑩♒③☪♒⌛→☠⬀ ◑♒♌⬀ ✁♋✍⬄☝◆➲•◷➔↖❏✁☎ ⬀♊⬂♓⬁)(البقرة). لذلك من أولويات المشروع الإسلامي في السودان، في هذا الزمان الذي تعددت فيه عناصر القوة مطلقا وعند العدو، هو إعداد القوة المستطاعة، على كافة مستوياتها، إبتداءً بالمسلم الراشد المتحقق بالعلم التوحيدي، القوي في إيمانه، الحافظ والمحفوظ في نفسه وماله وبنيه، ثم المجتمع المتآلف بالإخوة في الله. فإذا تحقق المستطاع في هذا المستوى من القوة جاء المدد من الله بالأموال والبنين، عبر سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة، فيصبح أهل السودان أكثر نفيرا. ولا نظن أن ذلك سوف يتحقق ما لم نُقِم الوزن بالقسط في التفاعل الاجتماعي الذي ذكرناه في (1.2) أعلاه، لأنه سبيل السودان الوحيد للوفرة الاقتصادية والإلفة الاجتماعية، ومن ثم المنعة في المال والرجال. ثم يلي ذلك القوة المستطاعة في السلاح بأنواعه حتى يَرهبَنا عدونا فيسلم مشروعنا.

7.2- السودان نحو العالمية

القرآن خطاب للناس كافة إلى قيام الساعة، فأهل الإيمان لهم خطاب يناسب إيمانهم، وغيرهم لهم خطاب يناسبهم جوهره دعوتهم إلى اللحاق بركب الإيمان، لذلك فالدولة التي تقيم الدين حالها على الدوام بين أمرين: حفظ إيمان من آمن بتنمية مستدامة كما تقدم، ودعوة من لم

يؤمن إلى اللحاق بركب الإيمان، بخطاب يناسبه يلتزم شروط الزمان والمكان. وكما صارت التنمية المستدامة من أولويات المشروع الإسلامي في السودان بهذا الاعتبار الذي تقدم فكذلك الدعوة إلى الله على بصيرة يجب أن تكون من أولويات المشروع؛ سواء كان محل الخطاب من داخل السودان أو من خارجه. إن رؤية القرآن للعالم تبين لنا أن أفضل نموذج للدعوة إلى الله تعالى نقدمه لأهل هذا الزمان هو إقامة نموذج مجتمع توحيدي عمراني سنني تتجسد فيه رؤية العالم القرآنية، يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، يقيم الوزن بالقسط بين منجزات الحضارة البشرية المعاصرة ودواعي التوحيد التي تخلّصها من الفحشاء والمنكر والبغي من جهة، وتقيمها على قاعدة العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى من جهة أخرى.

إن فاقد الشيئ لا يعطيه أبدا، وما لم يتبين للآخرين قدرتنا على إصلاح حالنا بالإسلام، والقدرة على العطاء الحضاري، على مستوى سقف الإنجاز البشري المعاصر، فلن تشتري المجتمعات الأخرى بضاعتنا مهما بدا لنا صلاحها وعالميتها، وقد حذرنا القرآن الكريم من أن نقول ما لا نفعل، أو أن نأمر الناس بالبر وننسى أنفسنا. نريد إقامة مجتمع توحيدي يبسط يده إلى مجتمعات المسلمين الأخرى بالأخوة فى الدين، وإلى مجتمعات غير المسلمين بالبر والقسط في إطار الإخاء الإنساني الأوسع، وبالانتصار إذا بُغي عليه، وقد وعده الله بالنصر، والله لا يخلف الميعاد.

تم بحمد الله تعالى